

نقد متلازمة النبوة والإمامة

في ضوء الدفاع القرآني عن بشرية الأنبياء عند الاثنى عشرية

د. عابدين السيد عبد اللاه (*)

مقدمة البحث:

غلبت النزعة العقلية على التمهيد القرآني لحتمية موت النبي الأعظم (ﷺ)؛ سواءً أكان ذلك بصورة ضمنية أم بصورة صريحة^(١) ومع ذلك، وقفت القلوب دون تصديق فاجعة موته (ﷺ) حتى سمعت مقالة أبي بكر الصديق (رضي الله عنه الشهيرة: (من كان منكم يعبد محمدًا، فإن محمدًا قد مات، ومن كان منكم يعبد الله، فإن الله حي لا يموت) ثم كان اجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعدة الذي دفع بأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب للمسارعة إليهم، وانتهى الخلاف السياسي بين المهاجرين والأنصار بالاتفاق على أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) ليكون هو الخليفة الصالح للقيام بمهام النبي (ﷺ) في رعاية مصالح أمته؛ إذ احتج أبو بكر الصديق يوم السقيفة على الأنصار في دفاعهم عن استحقاق الخلافة لما بايعوا سعد بن عبادَةَ عليها بقول النبي (ﷺ): (الأنمة من قريش) فأقلعوا عن التفرد بها، ورجعوا عن المشاركة فيها؛ إذ قالوا: منا أمير ومنكم أميرًا تسليمًا لروايته وتصديقًا لخبره.

من أجل منع تكرار خلاف السقيفة، قام أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) بتزكية عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، ووافقه المهاجرون على ذلك، وتمت البيعة لعمر (رضي الله عنه)، وعندما حضرته (رضي الله عنه) الوفاة رشح سنة من الصحابة، وتمت البيعة لعثمان بن عفان (رضي الله عنه) من بينهم، وبعد اغتياله (رضي الله عنه) تمت البيعة لعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه) والذي حدثت في فترة خلافته موقعتي الجمل وصفين، فظهر من ذلك تمرد خوارج النهروان على خلفية تنازل الإمام علي (رضي الله عنه) عن كتابة أمير المؤمنين في وثيقة الصلح مع

(*) مدرس الفلسفة الإسلامية - كلية الآداب - جامعة سوهاج.

(١) بصورة ضمنية كما في قوله تعالى: (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مَّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ) سورة الأنبياء: الآية ٣٤، وبصورة صريحة كما في قوله تعالى: (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ) سورة الزمر: الآية ٣٠.

معاوية الذي اعترض على كتابتها بقوله: (لو كنا نعلم أنك أمير المؤمنين ما خالفناك) وكانت حجة الخوارج: (يا علي: لو كانت إمامتك حقاً فلم رضيت بمحوها؟).

كما شهدت فترة خلافة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) فتنة السبئية أتباع المعلم الأول لغلاة الشيعة عبد الله بن سبأ الذي كان يقول في أول أمره: إن علياً كان نبياً، ثم زاد على ذلك فقال: كان إلهاً، فانتقلت السبئية من ذهنية الوصاية بالإمامة لعلي إلى ذهنية التقديس والتأليه للأئمة، وبرجعة المهدي آل محمد لإقامة دولة العدل الإلهي^(١) وعلى أية حال، لا يعنيها - هنا - مناقشة النزاع الجدلي حول الوجود التاريخي لشخصية عبد الله بن سبأ بين الوهم والحقيقة^(٢)؛ وإنما يعنيها المؤثرات الفكرية لما نسب إليه من أفكار على مفهوم الإمامة ومكانتها عند الشيعة الاثني عشرية.

دوافع البحوث وأهميته:

يعد شعور الباحث بالأسى من انتشار ظاهرة التحفيل العلماني على نواتج الإسلام السياسي، وراء تولد حب الاستطلاع المعرفي، والرغبة الملحة في عمل ورقة بحثية عن (نقد متلازمة النبوة والإمامة في ضوء الدفاع القرآني عن بشرية الأنبياء عند الاثني عشرية) باعتبار أن الإمامة كانت فاتحة اختلاف حاد بين السنة والشيعة تجاوز في عالمنا المعاصر حدود الكتب والصالونات الثقافية والحوارات العلمية إلى برامج القنوات الفضائية ومواقع التواصل الاجتماعي، فبات يورق حتى عوام المسلمين بسبب عجزهم عن فهم السر وراء اقتناع السنة

(١) لمزيد من التفاصيل راجع: الاسفراييني (أبو المظفر): التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، تحقيق كمال يوسف الحوت، عالم الكتب، بيروت ١٤٠٣هـ، ص ٢٠، وص ١١٩، ص ١٢٣. وأيضاً: الأشعري (أبو الحسن): مقالات الإسلاميين، واختلاف المصلين، الجزء الأول، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الثانية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٩م، ص ٦٩ وما بعدها.

(٢) لمعرفة تفصيل الاختلاف، راجع على سبيل المثال: الموسوي (حسين): لله ثم للتاريخ؛ كشف الأسرار وتبرئة الأئمة الأطهار، النجف، د. ت، ص ٩، ١٠ و ١٢، وأيضاً: آل كاشف الغطاء (محمد الحسين): أصل الشيعة وأصولها، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ١٤١٠هـ، ص ٤٠، ٤١.

بفكرة توريث الخلافة الإسلامية لـ(معاوية وذريته) واقتناع الشيعة بفكرة النص الإلهي على (إمامة علي وذريته).

تساؤلات البحث:

التساؤل الرئيس للبحث هو: ما مدى المعقولية المنطقية والدينية في متلازمة النبوة والإمامة التي تشكل في ضوء الدفاع القرآني عن بشرية الأنبياء عند الاثني عشرية؟ ويتفرع من هذا التساؤل عدة تساؤلات فرعية، منها:

- الأول: ما معنى المتلازمة الشيعية بين النبوة والإمامة؟
- الثاني: هل يعد النص على الإمام لطفًا إلهيًا كما الحال في بعث النبي؟
- الثالث: ما مدى المعقولية المنطقية والدينية في الانتقال الشيعي من الإصطفاء الإلهي للأنبياء إلى الإصطفاء الإلهي للأئمة؟
- الرابع: ما مدى المعقولية المنطقية والدينية في الانتقال الشيعي من العصمة الإلهية للأنبياء إلى العصمة الإلهية للأئمة؟
- الخامس: ما مدى المعقولية المنطقية والدينية في الانتقال الشيعي من معجزات الأنبياء إلى معجزات الأئمة؟
- السادس: ما مدى المعقولية المنطقية والدينية في الانتقال الشيعي من علم الأنبياء إلى علم الأئمة؟

منهج البحث:

اقتضت المعالجة المنهجية لإشكالية البحث استخدام عدة مناهج على النحو

الآتي:

- المنهج التحليلي في تحديد معاني المصطلحات والمفاهيم المستخدمة مثل: المتلازمة والإصطفاء الإلهي، والعصمة، والمعجزات، واللفظ الإلهي، وكذا في تحليل آراء الاثني عشرية الإمامية حول مفهوم الإمامة ومكانتها، بين ذهنية التقديس الشيعي وبين ذهنية التبرير السني.

- المنهج التاريخي في رد الأفكار والمفاهيم إلى أصولها الأولى التي نبعت منها سواء القرآن والسنة أو جدليات السابقين على الاثنى عشرية من الشيعة.
- المنهج المقارن في إبراز أوجه الاتفاق والاختلاف في متلازمة النبوة والإمامة بين النظرية والتطبيق عند السنة والشيعة.
- المنهج النقدي في إبراز ما ينطوي عليه مفهوم الإمامة ومكانتها عند الفريقين من إيجابيات وسلبيات، وتوضيح مواطن الأصالة والطرافة والتقليد فيه، وذلك بالنقد المنطقي البحت الذي يتجاوز نواتج ذهنية التكفير وإقصاء الآخر للاستحواذ على لقب الفرقة الناجية ليكون منطق البحث هو مدى معقولية طرح كل فريق في ضوء حججه على فرض صحتها، فيتم تقييم للفريقين في إطار ما طرحه كل فريق من مقدمات اقتنع بها واستلزمت نتائج معينة، أو بدأ بنتائج معينة بحث لها عن مقدماتها المنطقية.

البنية الموضوعية للبحث:

رأينا تقسيم البنية الموضوعية للبحث إلى ستة مباحث، وهي:

- المبحث الأول: متلازمة الشيعة بين النبوة والإمامة.
- المبحث الثاني: متلازمة اللطف الإلهي في بعثة للأنبياء ونصب الأئمة.
- المبحث الثالث: متلازمة الاصطفاء الرباني للأنبياء والأئمة.
- المبحث الرابع: متلازمة العصمة الإلهية بين الأنبياء والأئمة.
- المبحث الخامس: متلازمة المعجزات الإلهية بين الأنبياء والأئمة.
- المبحث السادس: متلازمة العلم بالغيب بين الأنبياء والأئمة.

المبحث الأول: المتلازمة الشيعية بين النبوة والإمامة:

يعتقد الشيعة الإمامية أن الإمامة منصب إلهي كالنبوة^(١) والإمام هو النبي، والتغيير في الاسم فقط^(٢) وعليه، ذهبوا إلى أن "الإمام يجب أن يكون منصوباً عليه من النبي نفسه، ومعيناً من قبله بالذات، مستندين في ذلك إلى أن الإمامة استمرار لمقام النبوة، ولا بد فيها - كالنبوة - من التعيين الخاص والكاشف عن اختيار الله تعالى ورضاه"^(٣).

يقول محمد الرضوي: "الإمامة لا تكون إلا بالنص من الله تعالى على لسان النبي، أو لسان الإمام الذي قبله"^(٤) ويقول محمد رضا المظفر: "نعتقد أن الإمامة كالنبوة لا تكون إلا بالنص من الله تعالى على لسان رسوله، أو لسان الإمام المنصوب بالنص، إذا أراد أن ينص على الإمام من بعده، وحكمها في ذلك حكم النبوة بلا فرق"^(٥).

لذا، كما يرى الشيعة أنه لا نبوة بانتخاب وشورى، فذلك لا إمامة بشورى وانتخاب^(٦)؛ يقول الطبرسي (ت ٥٨٨ هـ): "وقد نزه الله نفسه عن أن يشرك به أحداً في الاختيار"^(٧) ويقول محمد رضا المظفر: "فليس للناس أن يتحاكموا فيمن يعينه الله هادياً ومرشداً لعامة البشر، كما ليس لهم حق تعيينه أو ترشيحه أو انتخابه؛ لأن الشخص الذي له من نفسه القدسية استعداد لتحمل أعباء الإمامة العامة، وهداية البشر قاطبة يجب ألا يعرف إلا بتعريف الله، ولا يعين إلا

(١) آل كاشف الغطاء: أصل الشيعة وأصولها، ص ١٣٤، وأيضاً: الفقاري (ناصر بن علي): أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية؛ عرض ونقد، المجلد الأول، دار القلم، بيروت ١٤١٥ هـ، ص ٦٥٥، وأيضاً: الرضوي (محمد الرضي): نحن الشيعة الإمامية وهذه عقائدنا، مؤسسة السبطين العالمية، قم، إيران ١٤٣٤ هـ، ص ٤٠.

(٢) الفقاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية، ص ٦٥٥.

(٣) آل ياسين (محمد حسن): أصول الدين، مؤسسة قائم آل محمد، قم، إيران ١٤١٥ هـ، ص ٢٧٨.

(٤) الرضوي: نحن الشيعة الإمامية، ص ٣٨.

(٥) المظفر (محمد رضا): عقائد الإمامية، النجف الأشرف، العراق ١٣٧٠ هـ، ص ٧٤.

(٦) آل ياسين: أصول الدين، ص ٢٧٨، وأيضاً: الرضوي: نحن الشيعة الإمامية، ص ٣٨.

(٧) الطبرسي (أبو منصور): الاحتجاج، الجزء الأول، تحقيق: إبراهيم البهادري & محمد هادي به، إشراف: جعفر السبحاني، دار الأنوار للطباعة والنشر، إيران ١٤١٢ هـ، ص ٢.

بتعيينه"^(١) وروى الكليني (ت ٣٢٩هـ) عن أبي عبد الله عليه السلام: (إن الحجة لا تقوم لله على خلقه إلا بإمام حتى يعرف)^(٢).

الإمامة واجبة وجوب النبوة، ضرورة ضرورتها^(٣)؛ فالأئمة كما يقول أبو أبو منصور الطبرسي (ت ٥٨٨هـ) هم "أمناء الله في بلاده، وحججه على عباده، بهم تمت علينا النعمة"^(٤) ومن مرويات الشيعة التي تؤكد على ضرورة الإمامة ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم في خطبة الغدير: "معاشر الناس: كل حلال دللتكم عليه، وكل حرام نهيتكم عنه، فأني لم أرجع عن ذلك، ولم أبدل، ألا فاذكروا ذلك واحفظوه، وتواصوا به، ولا تبدلوه، ولا تغيروه، ألا وإني أجدد القول: ألا فاقموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف وأنها عن المنكر، ألا وإن رأس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: أن تنتهوا إلى قولي، وتبلغوه من لم يحضره، وتأمره بقوله، وتنهوه عن مخالفته، فإنه أمر من الله عز وجل ومني، ولا أمر بمعروف ولا نهى عن منكر إلا مع إمام معصوم"^(٥).

من ناحية أخرى، كل ما دل على ضرورة النبوة ووجوبها يكون صالحاً للاستدلال به على ضرورة الإمامة ووجوبها^(٦)؛ أي أن "الدليل الذي يوجب إرسال الرسل وبعث الأنبياء عليهم السلام هو نفسه يوجب أيضاً نصب الإمام بعد الرسول"^(٧) بل زعم أن استنباط الفرق بين النبي والإمام من تلك الأخبار لا يخلو يخلو من إشكال، ولا يصل عقولنا فرق بين النبوة والإمامة^(٨)، من هنا نشأ ما يمكن الاصطلاح عليه في هذا البحث بـ(متلازمة النبوة والإمامة عند الأئمة عشرية).

(١) المظفر: عقائد الإمامية، ص ٧٤.

(٢) الكليني (محمد بن يعقوب): أصول الكافي، الجزء الأول، منشورات الفجر، بيروت ١٤٢٨هـ، ص ١٠٣.

(٣) آل ياسين: أصول الدين، ص ٢٧٧.

(٤) الطبرسي: الاحتجاج، الجزء الأول، ص ٢.

(٥) المرجع السابق، ص ١٥٧.

(٦) آل ياسين: أصول الدين، ص ٢٧٦.

(٧) الرضوي: نحن الشيعة الإمامية، ص ٣٨.

(٨) القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الأئمة عشرية، ص ٦٥٥.

من المرويات الشيعية المؤسسة لمتلازمة النبوة والإمامة، ما قاله أبو عبد الله عليه السلام: إن الله عز وجل لما خلق العرش كتب عليه: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، علي أمير المؤمنين.. ولما خلق الله عز وجل الكرسي كتب على قوائمه: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، علي أمير المؤمنين.. ولما خلق الله عز وجل اللوح كتب فيه: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، علي أمير المؤمنين^(١) والسؤال الذي يطرح نفسه هو: لم التحول بالإمامة من مرتبة البشرية إلى مرتبة التقديس عند الاثني عشرية؟

إذا كانت ملاحقة حكام بني أمية لآل البيت النبوي عليهم السلام بالقتل والتنكيل وراء دعوة الزيدية إلى الخروج على أئمة الجور إثارةً لحياة كريمة أو موتاً في سبيل الله، وتنفيذاً للتكليف الإلهي بضرورة تغيير المنكر^(٢)؛ إذ يقول (عليه السلام): (وَلَتَكُنَّ مَنَّكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)^(٣) إلا أن تلك الملاحظات كانت وراء تفعيل الذهنية السبئية التي ظهرت على مسرح الاضطهاد السياسي لآل البيت منذ مؤتمر السقيفة، والذي يعد أساس الفواجع التي عصفت بوحدة الأمة الإسلامية، ومهدت لكارثة صفين، ثم مأساة كربلاء^(٤) مما جعلها طوق النجاة لآل البيت، فإن فقدوا عرش السياسة فقد تربعوا على عرش الدين والقلوب.

من نواتج ذهنية التقديس للأئمة عند الشيعة أنهم تصوروا مقام الإمامة كمقام النبوة، وربما أعلى منها^(٥) فأعطوا الإمام ما للنبي من اصطفاء رباني، ومعجزات، وعصمة، وعلم لدني.. وغير ذلك مما لا ينازعه فيه غيره بعد موت الأنبياء عليهم السلام باستثناء تسميته نبياً احتراماً لعقيدة ختم النبوة برسولنا الأعظم، بل تجاوز غلاة الشيعة ذلك ورفعوا مقام الأئمة إلى مقام الألوهية، كما

(١) الطبرسي: الاحتجاج، الجزء الأول، ص ٣٦٥.

(٢) قابيل (عبد الحى): فى علم الكلام وأهم مدارس، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية ٢٠١٥م، ص ٩٩.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٠٤.

(٤) الأمينى (إبراهيم): دراسة عامة فى الإمامة، ترجمة كمال السيد، مؤسسة أنصارى للطباعة للطباعة والنشر، قم المقدسة ١٤٢٦هـ، ص ١٠.

(٥) الحكيم (محمد باقر): الإمامة وأهل البيت؛ النظرية والاستدلال، المركز الإسلامى المعاصر للدراسات والترجمة والنشر، بيروت ١٤٢٤هـ، ص ٢٤.

يقول ابن خلدون: "إما على أنهم بشر اتصفوا بصفات الألوهية، أو أن الإله ذاته حل في ذاته البشرية"^(١).

يقول الشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ) عن الإمام علي: "إنه عليه السلام أفضل من كافة البشر سوى رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله"^(٢) وعن أبي جعفر عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: "خلقت الأرض لسبعة بهم ترزقون وبهم تنصرون وبهم تمظرون منهم: سلمان الفارسي، والمقداد، وأبو ذر، وعمار، وحذيفة؛ وكان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: وأنا إمامهم"^(٣) وقال أبو عبد الله عليه السلام: "يكون من شيعتنا في دولة القائم سنام الأرض وحكامها، يعطى كل رجل منهم قوة أربعين رجلاً"^(٤) ويقول أبو الحسن عليه السلام: "ولاية علي عليه السلام مكتوبة في جميع صحف الأنبياء"^(٥).

يقول محمد باقر الحكيم: "الإمامة هي مرتبة أعلى من درجة النبوة التي كان عليها إبراهيم عليه السلام عند مخاطبته بهذا الجعل الإلهي، كما يبدو ذلك من بعض القرآئن القرآنية بها بعد الابتلاء والامتحان، وهو ما تحقق بعد النبوة، ومن سؤال أو طلب الإمامة لذريته، ولم تكن له ذرية إلا في آخر عمره"^(٦).

كما أفضى الشعور بالمظلومية والقهر السياسي إلى محاولات توكيد الذات الشيعية من خلال فكرة الإمامة والمهدى المنتظر من أجل تحويل المظلومية من الطاقة السلبية إلى طاقة إيجابية تتمثل في نشوء ثقافة الانتظار لمهدى آل البيت الذي سوف ينشر العدل على الأرض، بل ونجد الشيعة الإمامية بالغوا في كرامات المهدى المنتظر؛ إذ لا يتمكن من الانتقام من حكام عصره وحسب، بل لن يفلت من انتقام المهدى من مات من حكام الجور؛ لأن الله سيبيح هؤلاء الظلمة

(١) ابن خلدون (عبد الرحمن): المقدمة، الطبعة الأولى، دار القلم، بيروت ١٩٧٨م، ص ١٩٨.

(٢) المفيد (محمد بن النعمان): كتاب تفضيل أمير المؤمنين عليه السلام، دار المفيد، بيروت ١٤١٤هـ، ص ١٩.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٧.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٠.

(٥) المرجع نفسه، ص ٢٩.

(٦) الحكيم: الإمامة وأهل البيت، ص ٢٢.

وحاشيتهم ليتم محاكمتهم والانتقام منهم أمام من سيبعثون من آل بيت النبوة حتى يحصل لهم العزاء الإلهي عن معاناتهم.

في ضوء ذلك، تحصنت الشيعة ضد التفكير في الخروج على أئمة الجور بإجادة فن التقية وممارسة رياضة الانتظار، ودفع قهر الواقع بالشيعة إلى تقديس الأئمة حتى وصلوا بهم إلى التنزيه عن القابلية للمعارضة من عوام المسلمين؛ إذ قللت من شأن المكاة السياسية للإمام القابلة للمنافسة والاستلاب، وفي ذات الوقت عظمت من المكاة العلمية والولاية التكوينية غير القابلة للمنافسة والاستلاب.

من المهم هنا أن نذكر أن من أهم ما فعلته الذهنية السبئية في المذهب الشيعي هو الانتقال من الدفاع عن الحق السياسي للإمام علي في الإمامة إلى الدفاع عن الحق الديني لآل البيت في الإمامة، فأصبحت من أصول الدين الاعتقادية التي لا يكفر جاحدها وحسب، بل ويكفر الجاهل بإمام عصره.

ورد في روايات الفريقين عن النبي صلى الله عليه وسلم: (من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية) وفي الدعاء: (اللهم عرفني حجتك، فإنك إن لم تعرفني حجتك ضللت عن ديني) وهذا يدل على أن معرفته أمر ضروري جداً^(١).

من ناحية أخرى، نجد أن الشيعة والسنة قد اتفقوا على أن نصب الإمام من الواجبات الشرعية إلا أن الجدل حول الإمامة وعلاقتها بأصول الدين اسهم في زيادة الاختلاف الشيعي السني؛ إذ اعتبر أهل السنة أن الإمامة من فروع الدين المصلحية، واعتقد الشيعة بأن الإمامة من أصول الدين الاعتقادية، وهي كالنبوة سواء بسواء، ويقول محمد رضا المظفر: "نعتقد أن الإمامة من أصول الدين التي لا يتم الإيمان إلا بالاعتقاد بها، ولا يجوز فيها تقليد الآباء والأهل والمربين مهما عظموا وكبروا، بل يجب النظر فيها، كما يجب النظر في التوحيد والنبوة"^(٢).

اعتبار الإمامة من أصول الدين الاعتقادية يعني "الإيمان بإمامة الأئمة الاثني عشر المعصومين ابتداءً بأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام،

(١) الشاهروذى (محمد الحسيني): أجوبة المسائل الاعتقادية، مؤسسة آل المرتضى للتحقيق والنشر، قم، إيران ١٤١٦ هـ، ص ٢٦، وأيضاً: الأميني: دراسة عامة في الإمامة، ص ١٠.

(٢) المظفر: عقائد الإمامية، ص ٥٤، وأيضاً: الرضوى: نحن الشيعة الإمامية، ص ٣٨.

وانتهاءً بالحجة المنتظر محمد بن الحسن العسكري، وهو المهدي من أهل البيت عليهم السلام^(١) وأن النبي صلى الله عليه وسلم نص على إمامة علي عليه السلام من بعده، والإمام الأول نص على الإمام الثاني، وهكذا حتى الإمام الثاني عشر ينص السابق على اللاحق^(٢).

من ناحية أخرى، إذا افترضنا جدلاً أن الإمامة ليست من أصول الدين، فيجب الاعتقاد بها من جهة أن فراغ ذمة المكلف من التكاليف المفروضة عليه قطعاً واجب عقلاً، ولكن تلك التكاليف ليست معلومة من قطعية، فلا بد من الرجوع إلى من نقطع بفراغ الذمة باتباعه، وهو الإمام^(٣) فلا شيء من أمر الدين يصح سواءً أركان الإسلام، أم العبادات، أم الإيمان، إلا والإمام فيها شيء أساس^(٤).

بقي أن نشير هنا، إلى أنه قد جاء سؤال علم الكلام عن إشكال الإمامة تبريراً للماضي على النحو الذي يتضح من كتاب (الإبانة في أصول الديانة) لأبي الحسن الأشعري (ت ٣٢٤هـ) الذي خصص باباً بعنوان: (الكلام في إمامة أبي بكر) ولم تخرج تحليلاته عن كونها تبريراً لإمامة أبي بكر الصديق وسائر الخلفاء الراشدين^(٥) وكان علم الكلام لا يبحث مشكلة الإمامة إلا ليقدم تبريراً للخلافة الراشدة لصالح أهل السنة ضد المواقف الشيعية الراضية لها، فوضعوا بذلك نظرية التبرير في مواجهة نظرية التقديس^(٦).

المبحث الثاني: متلازمة اللطف الإلهي في بعث الأنبياء ونصب الأئمة:

يقول العلامة الحلي: "الإمامة رئاسة عامة في الدين والدنيا لشخص من الأشخاص، وهي واجبة عقلاً، لأن الإمامة لطف، فإننا نعلم قطعاً أن الناس متى

(١) الصغير (محمد حسين علي): الفكر الإمامي من النص حتى المرجعية، دار المحجة البيضاء، إيران ١٤٢٤هـ، ص ١٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٦.

(٣) المظفر: عقائد الإمامية، ص ٥٤.

(٤) التميمي (هجاد بن مساعد): الألوهية والعبودية في معتقد الراضية، دار المحدثين للتحقيقات العلمية والتوزيع، القاهرة ٢٠٠٧م، ص ٣٠٩.

(٥) كوناكاتا (حسن): النظرية السياسية عند ابن تيمية، مركز الدراسات والإعلام، الرياض ١٤١٥هـ، ص ١٩.

(٦) المرجع نفسه، ص ١٧.

كان لهم رئيس ينتصف للمظلوم من الظالم، ويرد الظالم عن ظلمه، كانوا إلى الصلاح أقرب ومن الفساد أبعد، وقد تقدم أن اللطف واجب" (١).
أما كون الإمامة لطفًا، فذلك لأن اللطف هو ما يقرب العبد إلى الطاعة، ويبعده عن المعصية، ويحمله على طريق الحق، وهذا المعنى تحققه الإمامة بكل وضوح. وكل واحد يعلم أن وجود قائد مبسوط اليد، يردع الظلم، ينتصف للمظلوم، وينظم شؤون الناس بإخلاص وإيمان وتجرد عن الهوى والأنانية وحب الأثرة؛ مما يقرب الإنسان إلى الطاعة، ويبعده عن المعصية، ويشجعه على السير وفق النهج الذي اختاره الله تعالى (٢).

من هنا اتفقوا على أن النبوة والإمامة من الألفاظ الإلهية للإنسان، والشاهد في حق الأنبياء عليهم قوله (ﷺ): (وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَنْيَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ) (٣) وفي حق الأئمة عليهم السلام قوله (ﷺ): (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) (٤).

روى هشام ابن الحكم عن موسى بن جعفر عليه السلام قال: (يا هشام: إن الله على الناس حجتين: حجة ظاهرة وحجة باطنة، فأما الحجة الظاهرة، فالرسل والأنبياء عليهم السلام، وأما الحجة الباطنة فالعقول" (٥) والسؤال الذي يفرض نفسه هو: هل يكتفي الإنسان بالعقل دون غيره؟ (٦).

يقول كمال الحيدري " كل إنسان يولد مزودًا بهداية فطرية، والشاهد القرآني: (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) (٧) وتقوم تلك الهداية بتحفيز الإنسان الإنسان نحو تحصيل الكمال، ولكن دون أن تحدد له معالم الطريق إلى الكمال، ومن هنا اقتضت الحكمة الإلهية وجود نوع آخر من الهداية، وهو الهداية

(١) ابن المطهر الحلي (أبو منصور): منهاج الصلاح في اختصار المصباح، تحقيق: عبد الحميد الميردامادي، مكتبة العلامة المجلسي، قم، إيران، ١٣٢٠هـ، ص ٥٢٨.

(٢) آل ياسين: أصول الدين، ص ٢٧٥.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٧٣.

(٤) سورة السجدة: الآية ٢٤.

(٥) الكليني: أصول الكافي، الجزء الأول، ص ٨، ٩.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٥.

(٧) سورة الروم: الآية ٣٠.

التكوينية التي ترسم ما ينبغي فعله، وما لا ينبغي فعله، دون أن تجبر أحداً على المطلوب، فهي مجرد إراءة للطريق"^(١): (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةً بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)^(٢).

بعبارة أخرى، إن غاية الله تعالى من الخلق هي هدايتهم وكمالهم، وفي الطريق المستقيم لا بد وأن ينصب للخلق علماً نبياً، يكون على اتصال بمبدأ الخلق والوحي؛ ولو لم يخلق في عالم الوجود رسولاً من جانب البارئ تعالى انتفت حكمة الخلق بأسرها؛ إذ لم يمكن حينئذ إهتداء المجموعة البشرية.. ثم بما أن الإمامة والوصاية هي امتداد لخط الرسالة وتطبيقها وصيانتها، فوجود الإمام - الذي باعتقادنا هو الإمام على عليه السلام - أي إن الرسالة في استمراريتها تحتاج إلى وصي وإمام^(٣) فلولا وجود الإمام لم تنفع الرسالة النبوية لهذا الخلق؛ الخلق؛ إذ تبقى ناقصة لم يطبقها أحد، أو يطرأ عليها الانحراف والضياع، فتجنباً من هذه المحاذير، وصيانة للوحي الهادف، يجب عقلاً وجود الإمام، فلولا لا تتم الحجة على البشر، وهذا خلاف حكمة الخالق، وعليه فلولا وجود على عليه السلام كإمام، لم يخلق محمد صلى الله وسلم كنبى للبشر لعدم تكميل الهداية حينئذ^(٤).

بعبارة أخرى، إذا كان ثمة وظيفة تكوينية أساسية يقوم بها الإمام، وهي إيصال السالكين إلى غاية المطلوب، وهو الحق تعالى^(٥) فقد كان استخدام الولاية التكوينية من قبل الأئمة في نطاق محدود؛ لأن الأئمة لا يريدون أن يجبروا الناس على الاعتراف بهم، والاستسلام لأوامرهم مكرهين ومغلوبين على أمرهم، بل يريدون من الناس أن تكون هدايتهم عن طريق الاختيار والافتناع،

(١) الحيدري (كمال): من الخلق إلى الحق، مؤسسة الإمام الجواد للفكر والثقافة، قم، إيران ١٤٢٦هـ، ص ١٨١.

(٢) سورة النساء: الآية ٧١.

(٣) مركز الأبحاث العقائدية: موسوعة الأسئلة العقائدية، الجزء الثاني، قم، إيران ١٤٢٩هـ، ص ٤٢٧.

(٤) المرجع نفسه، ص ٤٢٨.

(٥) الحيدري: من الخلق إلى الحق، ص ١٦٤.

فلو استعمل الإمام عليه السلام ولايته التكوينية في كل موقف لصار الناس مجبورين على إتباع الإمام وأصبحوا مسلوبي الاختيار^(١).

بهذا التصور تقترب سلطة الأئمة في الهداية من التصور القرآني للسلطة النبوية، بل تتجاوز هذا التصور؛ إذ يخاطب الله (ﷻ) النبي (ﷺ) بقوله: (أَفَأَنْتَ تَكْفُرُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)^(٢) (وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)^(٣) (وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ)^(٤) (وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ)^(٥) (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ)^(٦) (فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ)^(٧) (وَقُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي. فَاَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ)^(٨) (وَقُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا)^(٩).

المبحث الثالث: متلازمة الاصطفاء الرباني للأنبياء والأئمة:

إن متلازمة الاصطفاء الرباني للأنبياء والأئمة بحسب التصور الشيعي تعني "أن الله سبحانه يختار من يشاء من عباده للنبوة والرسالة.. فكذاك يختار للإمامة من يشاء"^(١٠) من أجل القيام بالمهام المقدسة مثل: الشهادة، والهداية، وإبلاغ الرسالة، والبشارة، والإنذار، والتركية، والتعليم، وإقامة القسط والعدل بين الناس^(١١).

يقول الطبرسي: "خير العترة الأئمة الهادية الاثني عشر أمناء الله في بلاده، وحججه على عباده، بهم تمت علينا نعمته، وعلت كلمته، اختارهم للبرية إظهاراً

(١) الكرياسي (صالح): استخدام الولاية التكوينية من قبل الأئمة، مقال منشور على الموقع الإلكتروني: <https://www.islam4u.com> بتاريخ ٢٠١٦/٧/٣١م.

(٢) سورة يونس: آية ٩٩.

(٣) سورة الأنعام: آية ١٠٧، وأيضاً: سورة الزمر: آية ٤١، وأيضاً: سورة الشورى: آية ٦.

(٤) سورة الغاشية: آية ٢٢.

(٥) سورة ق: آية ٤٥.

(٦) سورة البقرة: آية ٢٥٦.

(٧) سورة الكهف: آية ٢٩.

(٨) سورة الزمر: الآيتين: ١٤، ١٥.

(٩) سورة يونس: آية ١٠٨.

(١٠) آل كاشف الغطاء: أصل الشيعة وأصولها، ص ١٣٤.

(١١) الحكيم: الإمامة وأهل البيت، ص ٢٤.

للطفه وحكمته، وإنارة لأعلام عدله ورحمته، فانزاحت بهم علة العبيد، وزهق باطل كل متكبر عنيد"^(١).

إن مراد الاثنى عشرية بالإمامة" كونها منصباً إلهياً يختاره الله بسابق علمه بعباده، كما يختار النبي، ويأمر النبي بأن يدل الأمة عليه، ويأمرهم باتباعه، ويعتقدون أن الله سبحانه أمر نبيه بأن ينص على علي وينصبه علماً للناس من بعده، وكان النبي يعلم أن ذلك سوف يتقل على الناس، ومن المعلوم أن الناس ذلك اليوم وإلى اليوم ليسوا في مستوى واحد من الإيمان واليقين بنزاهة النبي وعصمته من الهوى والغرض^(٢) ولكن الله سبحانه لم يعذره في ذلك، فأوحى إليه بقوله(ﷺ): (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)^(٣) فلم يجد يجد بدأ من الامتثال بعد هذا الإنذار الشديد، فخطب في الناس عند منصرفه من حجة الوداع في غدير خم^(٤) فنادى وجلهم يسمعون: (ألسنت أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟) فقالوا: اللهم نعم. فقال: (من كنت مولاه فهذا علي مولاه) ثم أكد في مواطن أخرى تلويحاً وتصريحاً وإشارةً ونصاً حتى أدى الوظيفة، وبلغ عند الله المعذرة"^(٥).

السؤال الذي يفرض نفسه هو: هل استطاع الشيعة التأسيس العقلي لفكرة الاصطفاء الرباني باعتبارها من دعائم تصورهم للمكانة الافتراضية التي منحوها لأنمتهم؟

يبدو لأول وهلة أن النص القرآني: (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)^(٦) يمنع من التفكير في التأسيس العقلي للاصطفاء الإلهي للأنبياء، ولكن ذلك الرأي ليس بصائب، فهو نص لمنع إخضاع أفعال الله للتحسين والتقييح العقليين، لكن التأسيس العقلي هو محاولة للكشف عن الحكمة وراء أفعال الله وتنزيهها من

(١) الطبرسي: الاحتجاج، الجزء الأول، ص ٢.

(٢) آل كاشف الغطاء: أصل الشيعة وأصولها، ص ١٤٥.

(٣) سورة المائد: الآية ٦٧.

(٤) راجع تفاصيل احتجاج النبي الأكرم يوم الغدير بولاية علي: الطبرسي: الاحتجاج، ص ١٣٣ ص ١٣٣ وما بعدها.

(٥) آل كاشف الغطاء: أصل الشيعة وأصولها، ص ١٤٦.

(٦) سورة الأنعام: الآية ١٢٤.

العبيثية والسفه؛ أي أن سمو الأخلاق لا يغني عن الاصطفاء الإلهي الذي تحكمه من تجاهل أخلاق المصطفي وسيرته بين الناس.

لذلك، يعد جعل الإلهي والتخلي بصفات الكمال الإلهي بحسب الطاقة البشرية هي القاسم المشترك بين النبوة والخلافة الآدمية والإمامة الإبراهيمية. فمهما بلغ الإنسان من الكمال، فلا يستحق بصورة تلقائية مقام النبوة أو الخلافة أو الإمامة؛ إذ لا بد من جعل الإلهي، والشواهد القرآنية عليه: (وَكَلَّا جَعَلْنَا نَبِيًّا) (١) (وَجَعَلْنَا نَبِيًّا) (٢) (وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ) (٣) (وَأَنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) (٤) (وَأَنِّي جَاعِلٌ لِلنَّاسِ إِمَامًا) (٥) (وَجَعَلْنَا هُمْ أُمَّةً) (٦).

في ضوء ما تقدم، فالاعتقاد الصائب هو أن نؤمن بأن (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) (٧) حتى نتفادي الخوض في (إشكالية التعليل العقلي للفعل الإلهي) أو في (إشكالية التحسين والتقبيح العقليين للاصطفاء الإلهي) إلا أن هذا لا يمنع من التأسيس العقلي لهذا الاصطفاء الإلهي، من أجل إثبات الحكمة منه، وفيه؛ إذ حاشاه أن تكون العبيثية حاکمة له.

إذا كان الاثني عشرية يعتقدون أن الله تعالى لم يجعل للناس حق التحكم فيمن يرسله هاديًا ومبشرًا ونذيرًا، ولا أن يتحكموا فيما جاء به من أحكام وسنن وشريعة^(٨) فقد كان من الطبيعي أن يكون لهم مرويات النص الإلهي على الأئمة الاثني عشر^(٩).

(١) سورة مريم: الآية ٤٩.

(٢) نفس السورة: الآية ٣٠.

(٣) سورة العنكبوت: الآية ٢٧.

(٤) سورة البقرة: الآية ٣٠.

(٥) نفس السورة: الآية ١٢٤.

(٦) سورة الأنبياء: الآية ٧٣.

(٧) سورة الأنعام: الآية ١٢٤.

(٨) المظفر: عقائد الإمامية، ص ٣٥.

(٩) المظفر (محمد الحسين): فضائل أمير المؤمنين وإمامته، من كتاب دلالات الصدق في الجواب الجواب عن (إبطال الباطل) الذي وضعه الفضل بن رزبهان للرد على (نهج الحق) للعلامة الحلي في المسائل الخلافية بين فرقتي الإسلام: الشيعة وأهل السنة وإثبات الإمامة، الجزء الأول، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٣١٢هـ، ص ٣٦٥.

هنا يبرز التفاعل بين العقل والوحي في متلازمة الاصطفاء الإلهي سواءً بالنسبة للأنبياء أم بالنسبة للأئمة، وهو ما يجعل في استطاعتنا التأسيس العقلي للاختيارات الإلهية في مواجهة الخصم^(١) حيث جمعت دلائل ثبوت النبوة المحمدية ما بين دلائل الاصطفاء ودلائل السيرة الأخلاقية للنبي(ﷺ)^(٢).

المبحث الرابع: متلازمة العصمة الإلهية بين الأنبياء والأئمة:

إن متلازمة العصمة الإلهية بين الأنبياء والأئمة عند الاثنى عشرية تعني "أن الأنبياء معصومون قاطبة، وكذلك الأئمة عليهم السلام"^(٣) والعصمة عند الاثنى عشرية تعني "التنزه عن الذنوب والمعاصي صغائرهما وكبائرهما، وعن الخطأ والسهو والنسيان، وإن لم يمتنع عقلاً على النبي أن يصدر منه ذلك، بل يجب أن يكون منزهاً حتى عما ينافي المروءة، كالتبذل بين الناس من أكل في الطريق أو ضحك عال، وكل عمل يستهجن فعله عند العرف العام"^(٤).

إن الأنبياء عليهم السلام عند الاثنى عشرية معصومون عن الذنوب كبيرها وصغيرها قبل النبوة وبعدها، ولا يصدر عنهم ما يشين لا عمدًا ولا سهوًا، وأنهم منزهون عن دناءة الآباء وعهر الأمهات، وعن الفظاظ والغلظة، وعن الأمراض المنفرة كالبرص والجذام، بل وعن كثير من الأعمال المباحة المنافية للتعظيم والتوقير، كالأكل في الطريق ونحوه^(٥).

(١) السبحاني (جعفر): محاضرات في الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، الجزء الثالث، الثالث، بقلم حسن محمد مكي العاملي، مؤسسة الإمام الصادق، قم، إيران ١٣٨٨هـ، ص ٥٩.

(٢) شمس الدين (محمد جعفر): دراسات في العقيدة الإسلامية، الطبعة الرابعة، دار التعارف للمطبوعات، بيروت ١٩٩٣م، ص ٢٣٢.

(٣) المظفر: عقائد الإمامية، ص ٤١، وأيضاً: الرضوي: نحن الشيعة الإمامية، ص ٣٩.

(٤) المظفر: عقائد الإمامية، ص ٤١، وأيضاً: الألوسي (أبو المعالي محمود شكري): صب العذاب على من سب الأصحاب، دراسة وتحقيق: عبد الله البخاري، أضواء السلف، الرياض ١٤١٧هـ، ص ٤٩٣.

(٥) مغنية (محمد جواد): فلسفات إسلامية، دار الجواد، بيروت ١٩٩٣م، ص ٣٨٩.

كذلك يعتقد الشيعة أن العصمة ليست مرهونة بفترة النبوة؛ إذ يعتقدون "أن الإمام كالنبي، يجب أن يكون معصوماً من جميع الرذائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن، من سن الطفولة إلى الموت عمداً أو سهواً"^(١).

السؤال الذي يطرح نفسه: لم اعتقد الشيعة بعصمة الأئمة المتكافئة مع عصمة الأنبياء عليهم السلام؟ والجواب المجمل كما يقول محمد الرضوي: "والدليل الذي اقتضانا أن نعتقد بعصمة الأنبياء هو نفسه يقتضينا أن نعتقد بعصمة الأئمة بلا فرق"^(٢) وأما الجواب التفصيلي: فلا يخفى على القارئ في جدليات الإمامة عند الشيعة إدراك أن احتجاج الإمامية على وجوب عصمة الإمام بوجهين، وهما:

الأول: العصمة شرط لاستحقاق الإمامة؛ فالإمامة عند الاثني عشرية هي المنصب الإلهي الذي لا يناله الظالمون^(٣) أو هي عهد من الله لا يناله الظالم نفسه أو لغيره^(٤) طبقاً للاشتراط الإلهي (لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ)^(٥) ولا بد أن يكون انتفاء الظلم عن الإمام بدرجة عالية تستلزم عصمته؛ إذ جاء النفي الإلهي لوصول الإمامة إلى الظالم بعد الطلب الإبراهيمي لإمامة المؤمن من ذريته، فهو نفي للظالم المؤمن^(٦)؛ إذ يقول العلامة الحلي: "لما سأل إبراهيم عليه السلام أن يجعل من ذريته أئمة؟ أجابه الله (ﷻ): (لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ)^(٧) والفاسق ظالم، فلا يصلح للإمامة"^(٨).

(١) الرضوي: نحن الشيعة الإمامية، ص ٣٩، وأيضاً: مغنية: فلسفات إسلامية، ص ٣٨٩.

(٢) الرضوي: نحن الشيعة الإمامية، ص ٣٩.

(٣) الصغير: الفكر الإمامي من النص حتى المرجعية، ص ١٧.

(٤) العسكري (مرتضى): معالم المدرستين، الجزء الأول، مركز الطباعة والنشر للمجمع العالمي لأهل البيت، طهران ١٤٢٦هـ، ص ٥٦٩، وأيضاً: الإيجي (عضد الدين): المواقف في علم الكلام، عالم الكتب، بيروت، د. ت، ص ٣٩٩.

(٥) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

(٦) الحكيم: الإمامة وأهل البيت، ص ٢٢.

(٧) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

(٨) ابن المطهر الحلي: الرسالة السعدية، ص ٨٣.

الثاني: وجوب العصمة كشرط لأداء مهمة الإمام المقدسة؛ إذ "يجب أن يكون الإمام معصوماً من الذنوب كلها صغيرها وكبيرها، ليليق بهذا المقام الرفيع كالرسول (ﷺ)"^(١).

الدليل على عصمة الأنبياء عليهم السلام بالنسبة للمعاصي هو نفسه يدل على عصمتهم من الخطأ في تقدير الأمور؛ إذ لا يمكن الوثوق والاطمئنان برسالة الرسول إلا إذا كان معصوماً من جميع الجهات، ولو جوزنا الخطأ في النبي (ﷺ)، والإمام عليه السلام فلا تكون أقواله وأفعاله وأحواله حجة لنا^(٢).

استدل القائلون بوجوب العصمة للأنبياء بأن الغرض من البعثة هو عدم وقوع المعصية وإطاعة الله، فلو عصى الأنبياء أو أخطأوا في تبليغ لم يحصل الغرض، كما أن صدور الذنوب عنهم يوجب سقوط هيبتهم عن القلوب، وانحطاطهم في أعين الناس، فلا ينقاد إليهم أحد^(٣) ولذلك، يجب أن يكون الإمام معصوماً من السهو والخطأ والنسيان؛ لأن الأئمة حفظة الشرع والقوامون عليه، حالهم في ذلك حال النبي^(٤) وأيضاً، فلأن الإمام حافظ للشرع، لعدم إحاطة القياس والسنة به، لتجدد الحوادث، فلو لم يكن معصوماً، لاختل أمر الشرع^(٥).

كما أن "الحاجة إلى الإمام إنما هي رد الظالم عن ظلمه، والفساق عن معصيته، فلو جاز عليه ذلك، لأفتقر إلى إمام آخر وتسلسل، وهو محال^(٦)" وأيضاً، لو لم يكن الإمام معصوماً، لجاز أن يخطئ ويسهو؛ فجاز أن يفتى بغير الحق جهلاً أو عمداً، وأن يعصى؛ فإن وجب اتباعه، لزم وجوب فعل القبيح، وهو باطل بالاجماع، وإن لم يجب انتفت فائدة الإمامة^(٧) وأيضاً، لو وقع من الإمام المعصية؛ فإن وجب زجره والانكار عليه، سقط محله من القلوب، ولم يجب اتباعه، وانتفت فائدة الإمامة، وإن لم يجب لزم الإخلال بالنهي عن المنكر، وهو

(١) الرضوى: نحن الشيعة الإمامية، ص ١٠.

(٢) ابن المطهر الحلي: الرسالة السعدية، ص ٨٢.

(٣) مغنية: فلسفات إسلامية، ص ٣٨٩.

(٤) الرضوى: نحن الشيعة الإمامية، ص ٣٩.

(٥) ابن المطهر الحلي: الرسالة السعدية، ص ٨٢.

(٦) المرجع نفسه، ص ٨١.

(٧) المرجع نفسه، ص ٨٢.

حرام بالاجماع^(١) والسؤال الذي يفرض نفسه هو: هل توبة الأنبياء واستغفارهم من مضادات العصمة؟

الحقيقة، فإن ما يوجد في القرآن من توبة الأنبياء عليهم السلام واستغفارهم كقوله تعالى (قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي)^(٢) وأمثال ذلك فإما أن يكون لترك الأولى أو لصدور ما لا يناسب مقامهم السامي، ولو بعنوان الاشتغال بأمور الدنيا الذي يلزم عدم التوجه التام إلى الحضرة الربوبية، وإن لم يكن حراماً، بل ولا ترك الأولى، وقتل موسى عليه السلام الكافر لم يكن حراماً، ومع ذلك استغفر^(٣). بناءً عليه، فالسؤال الذي يفرض نفسه: ما المخرج المنطقي الذي طرحه الاثني عشرية للخروج من مأزق صدور أقوال وأفعال من الإمام تتنافى مع عصمته؟ بررت الاثني عشرية وقوع ما يتنافى مع العصمة من أقوال الأئمة وأفعالهم بـ(التقية) والتي اعتبروها بحسب مرويات الكليني: (جنة المؤمن)^(٤) وقال عنها أبو جعفر عليه السلام: (التقية من ديني ودين آبائي، ولا إيمان لمن لا تقية له)^(٥).

المبحث الخامس: متلازمة المعجزات الإلهية بين الأنبياء والأئمة:

برزت معالم الإمامة الإبراهيمية في القرآن الكريم من خلال أربعة مقامات، وهي؛ الأول: مقام الابتلاء، والشاهد القرآني: (وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ)^(٦) بكلمات^(٧) والثاني: مقام الجعل الإلهي، والشاهد القرآني: (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا)^(٨) والثالث: مقام الاستمرار، والشاهد القرآني: (وَمِن دُرِّيَّتِي)^(٩) والرابع: والرابع: مقام الاستحقاق، والشاهد القرآني: (لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ)^(١٠) وهو

(١) ابن المطهر الحلي: الرسالة السعدية، ص ٨٢.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٥١.

(٣) الشاهروذي: أجوبة المسائل الاعتقادية، ص ٤٩.

(٤) الكليني: أصول الكافي، الجزء الثاني، ص ١٣٥.

(٥) المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(٦) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

(٧) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

(٨) نفس السورة والآية.

(٩) نفس السورة والآية.

كما يقول كمال الحيدري: "نص صريح بأن إبراهيم النبي والرسول وصاحب الشريعة قد نال مقام الإمامة بعد ذلك وتحديداً في أخريات عمره الشريف عليه السلام، حيث نالها بعد العبودية والنبوة والرسالة والخلة؛ أي بعد أن قطع أشواطاً كثيرة من سيره التكاملي إلى الله تعالى فدل على أشرفية مقام الإمامة على النبوة المجردة عن الإمامة"^(١).

روى الكليني عن أبا عبد الله عليه السلام أنه قال: (إن الله تبارك وتعالى اتخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتخذه نبياً، وإن الله اتخذ نبياً قبل أن يتخذه رسولاً، وإن الله اتخذ رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً، وإن الله اتخذ خليلاً قبل أن يجعله إماماً)^(٢).

عندما ينصب الله عز وجل لخلقه هادياً ورسولاً، لا بد أن يعرفهم بشخصه، ويرشدهم إليه بالخصوص على وجه التعيين، وذلك بأن ينصب على رسالته دليلاً وحجة يقيمها لهم، إتماماً للطف واستكمالاً للرحمة، وذلك الدليل لا بد أن يكون من نوع لا يصدر إلا من خالق الكائنات ومدير الموجودات (أي فوق مستوى مقدور البشر) فيجريه على يد ذلك الرسول الهادي ليكون معرقاً به، ومرشداً إليه، وذلك الدليل هو المسمى بـ(المعجزة) لأنه يكون على وجه يعجز البشر عن مجاراته والإتيان بمثله^(٣).

السؤال الذي يفرض نفسه هو: هل تتم المعجزة مباشرة من الله؟ أم يتوجه النبي والإمام إلى الله أولاً في طلب ذلك؟ أم أنها جزء من قابليات النبي والإمام، وأن مجرد إرادة النبي أو الإمام في ذلك تتم المعجزة؟^(٤).

كما أنه لا بد للنبي من معجزة يظهر بها للناس لإقامة الحجة عليهم، فلا بد أن تكون تلك المعجزة ظاهرة الإعجاز بين الناس على وجه يعجز عنها العلماء وأهل الفن في وقته، فضلاً عن غيرهم من سائر الناس، مع اقتران تلك المعجزة بدعوى النبوة منه؛ لتكون دليلاً على مدعاه وحجة بين يديه. فإذا عجز عنها أمثال أولئك علم أنها فوق مقدور البشر وخارقة للعادة، فيعلم أن صاحبها فوق

(١) الحيدري: من الخلق إلى الحق، ص ١٥١، ١٥٢.

(٢) الكليني: أصول الكافي، الجزء الأول، ص ١٠١.

(٣) المظفر: عقائد الإمامية، ص ٣٩.

(٤) الأميني: دراسة عامة في الإمامة، ص ٢٥٣.

مستوى البشر بما له من ذلك الاتصال الروحي بمدير الكائنات، وإذا تم ذلك لشخص من ظهور المعجز الخارق للعادة، وادعى مع ذلك النبوة والرسالة، يكون حينئذ موضعاً لتصديق الناس بدعواه والإيمان برسالته والخضوع لقوله وأمره، فيؤمن به من يؤمن ويكفر به من يكفر عن بيته^(١).

ثمة فكرتان حول معجزات الأنمة والأنبياء عليهم السلام: الأولى: أن الإمام عليه السلام يدعو الله تبارك وتعالى فيستجيب دعاءه، ويحقق ما هو خارق عن العادة. والثانية: أن الإمام عليه السلام والنبى صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك بالمباشرة، ولكن بإذن الله وقدرته، فالإمام بنفسه يشفي المريض بإذن الله، ولأجل أن الله أعطاه هذه القدرة^(٢) الصحيح أن كليهما محتمل وممكن، وظاهر الآيات الاحتمال الثاني^(٣) فبقادر الله وإذنه وعدم منعهم تكويناً قد تصدر منهم هذه الأمور بإذن الله، وقد أوعزت الآيات القرآنية إلى ذلك، فقد نسبت إلى عيسى إحياء الموتى بإذن الله^(٤) (وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ)^(٥) فكما أن الإنسان النبي أو الإمام أو غيرهما تكون أفعاله الاختيارية صادرة منه، لكن بإذن الله وإعطائه القدرة، كذلك الكرامات الحاصلة على يد الإمام أو النبي صلى الله عليه وسلم يكون فعلاً له بالمباشرة، لكن بإذن الله وإعطائه هذه القدرة له^(٦).

نود الإشارة هنا إلى أن حديث غلاة الشيعة عن معجزات الأنمة^(٧) قد ابتعد عن معقولية الدفاع القرآني عن بشرية الأنبياء عليهم السلام مع أن الطبرسي

(١) المظفر: عقائد الإمامية، ص ٣٩.

(٢) الشاهروذى: أجوبة المسائل الاعتقادية، ص ١٠٨.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٠٩.

(٤) المرجع نفسه، ص ١١١.

(٥) سورة آل عمران: الآية ٤٩.

(٦) الشاهروذى: أجوبة المسائل الاعتقادية، ص ١٠٩.

(٧) الروحاني (صادق الحسيني): أجوبة المسائل الاعتقادية، مؤسسة الإمام للنشر والتوزيع، دمشق ١٤٢٨ هـ، ص ٧٦.

يقول: "قوله (ﷺ) عز وجل: (قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا) (١) ما أبعد ربي عن أن يفعل الأشياء على قدر ما يقترحه الجهال، بما يجوز وبما لا يجوز، وليس لأي أن أمر على ربي ولا أنهي ولا أشير" (٢).

المبحث السادس: متلازمة العلم بالغيب بين الأنبياء والأئمة:

برزت معالم الخلافة الأدمية في القرآن الكريم من خلال ثلاثة مقامات، وهي:
الأول: مقام الجعل الإلهي، والشاهد القرآني: (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) (٣)
والثاني: مقام التعليم الإلهي، والشاهد القرآني: (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا) (٤)
والثالث: مقام التعليم الأدمي، والشاهد القرآني: (يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ) (٥)
وتتمثل الحيثية التبريرية لمقام الخلافة الإلهية في الأرض عند الشيعة في (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا) (٦) حيث لا يهتمون بالبحث الجدلي في هوية المعلوم، وإنما في مصدر فيض العلم الإلهي على الخليفة، وقال النبي (ﷺ): (أنا مدينة العلم وعلى بابها) ولا مدخل إلى المدينة إلا بابها وهو المدخل الشرعي (وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا) (٧) وهو ما يؤسس لـ(متلازمة العلم بالغيب بين الأنبياء والأئمة عند الاثنى عشرية).

كما يقول الطبرسي: "أتى جبريل عليه السلام إلى النبي (ﷺ)، فقال: يا محمد! إن الله يقروك السلام، ويقول لك: إنه دنا أجلك.. فأعهد عهدك.. واعمد إلى ما عندك من العلم وميراث علوم الأنبياء من قبلك.. فسلمه إلى وصيك وخليفتك" (٨)
وخليفتك" (٨) من أقوال النبي (ﷺ) في خطبة الغدير: "معاشر الناس: إن الله قد أمرني ونهاني، وقد أمرت علياً ونهيته، فعلم الأمر والنهي من ربه، فأسمعوا

(١) سورة الإسراء: الآية ٩٣.

(٢) الطبرسي: الاحتجاج، الجزء الأول، ص ٦٤.

(٣) سورة البقرة: الآية ٣٠.

(٤) نفس السورة: الآية ٣١.

(٥) نفس السورة: الآية ٣٣.

(٦) نفس السورة: الآية ٣١.

(٧) نفس السورة: الآية ١٨٩.

(٨) الطبرسي: الاحتجاج، الجزء الأول، ص ١٣٥.

لأمره تسلموا، وأطعوه تهتدوا" (١) وأيضاً: "معاشر الناس: إن نبي وعلی وصيي.. ألا إنه وارث كل علم والمحيط به" (٢).

روى الكليني: "عن سليم بن قيس الهلالي أن الإمام على قال: "فما نزلت على رسول الله (ﷺ) آية من القرآن إلا وأقرانيها، وأملاها على فكتبتها بخطي، وعلمني تأويلها وناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها، وخاصها وعامها، ودعا الله أن يعطيني فهمها وحفظها، فما نسيت آية من كتاب الله، ولا علماً أملاه علي وكتبتة، ولا كتاب منزل على أحد قبله من طاعة أو معصية إلا علمنيه وحفظنيه، فلم أنس حرفاً واحداً" (٣).

لقد ثبت في الأبحاث النفسية أن كل إنسان له ساعة أو ساعات في حياته قد يعلم فيها ببعض الأشياء من طريق الحدس الذي هو فرع من الإلهام، بسبب ما أودع الله من قوة على ذلك، وهذه القوة تختلف قوة وضعفاً، وزيادة ونقصاً في البشر بحسب اختلاف أفرادهم، فيطفر ذهن الإنسان في تلك الساعة إلى المعرفة دون أن يحتاج إلى التفكير وترتيب المقدمات والبراهين، أو تلقين المعلمين، ويجد كل إنسان من نفسه ذلك في فرص كثيرة في حياته، وإذا كان الأمر كذلك، فيجوز أن يبلغ الإنسان من قوته الإلهامية أعلى الدرجات وأكملها (٤).

فلذلك، فإن قوة الإلهام عن الإمام التي تسمى بالقوة القدسية تبلغ الكمال في أعلى درجاته، فيكون في صفاء نفسه القدسية على استعداد لتلقي المعلومات في كل وقت وفي كل حالة، فمتى توجه إلى شيء من الأشياء، وأراد معرفته استطاع علمه بتلك القوة القدسية الإلهامية بلا توقف، ولا ترتيب مقدمات، ولا تلقين معلم، وتتجلى في نفسه المعلومات كما تتجلى المرئيات في المرآة الصافية لا غطش فيها ولا إبهام (٥).

يبدو واضحاً هذا الأمر في تاريخ الأئمة عليهم السلام كالنبي محمد (ﷺ) فإنهم لم يتربوا على أحد، ولم يتعلموا على يد معلم، من مبدأ طفولتهم إلى سن

(١) المرجع نفسه، ص ١٥١.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٥٤.

(٣) الكليني: أصول الكافي، الجزء الأول، ص ٣٨.

(٤) المظفر: عقائد الإمامية، ص ٥٧.

(٥) المظفر: عقائد الإمامية، ص ٥٧.

الرشد، حتى القراءة والكتابة، ولم يثبت عن أحدهم أنه دخل الكتاتيب، أو تتلمذ على يد أستاذ في شيء من الأشياء، مع ما لهم من منزلة علمية لا تجارى، ما سنلوا عن شيء إلا أجابوا عليه في وقته، ولم تمر على ألسنتهم كلمة لا أدري، ولا تأجل الجواب إلى المراجعة أو التأمل أو نحو ذلك^(١).

الظاهر من الآيات القرآنية علم الغيب مختص بالله تبارك وتعالى، ولكن يظهره لمن ارتضى من رسول وإمام، فالنبي والأئمة يعلمون الغيب لكن بالعرض، كما أن الله تعالى يعلم الغيب بالذات، وأما أن الرسول والأئمة يعلمون كل العلوم الغيبية، فهذا لم يثبت، بل الظاهر العكس، فإنه يظهر من الروايات أن الله تبارك وتعالى قد استأثر ببعض العلوم، ولم يطلع ولن يطلع عليها أحدًا^(٢).

لكن لفضل النبي والأئمة عليهم السلام، ومقامهم السامي، وكونهم أشرف المخلوقين، فقد اطلعوا على أكثر العلوم الغيبية بإعلام الله تعالى لهم، حيث عبر القرآن^(٣): (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ)^(٤) والمراد به أمير المؤمنين عليه السلام بحسب التفسير الصحيح، المؤيد بالروايات المتضافرة^(٥) والذي يساعده الاعتبار، وبعد مقايسة علم الإمام على بعلم آصف برخيا الذي أتى بعرش بلقيس في لحظة واحد، والذي كان له علم من الكتاب، يظهر عظمة وكثرة هذا العلم، وما هو إلا علم الغيب الكثير الواسع الضخم، ويؤيد هذا المعنى الروايات المتواترة في علمهم عليهم السلام، ذكر عن أبي عبد الله قال: (إن الله خلق أولي العزم من الرسل وفضلهم بالعلم، وأورثنا علمهم، وفضلنا عليهم في علمهم، وعلم رسول الله ﷺ) ما لم يعلموا، وعلمنا علم الرسول وعلمهم^(٦).

من مرويات الشيعة الخاصة بعلم الإمام على قوله عليه السلام: (فاسألوني قبل أن تفقدوني، فوالله الذي نفسي بيده، لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين

(١) المرجع نفسه، ص ٥٧، ٥٨.

(٢) الشاهروذى: أجوبة المسائل الاعتقادية، ص ٩٢.

(٣) المرجع نفسه ص ٩٣.

(٤) سورة الرعد: الآية ٤٣.

(٥) الطبرسي: الاحتجاج، الجزء الأول، ص ٣٦٩.

(٦) الشاهروذى: أجوبة المسائل الاعتقادية، ص ٩٣.

الساعة، ولا عن فتنة تهدي مائة وتضل مائة، إلا أنبأتكم بناعقها وقاندها وسائقها، ومناخ ركابها ومحط رحالها، ومن يقتل من أهلها، ويموت منهم موتاً) وقوله رضي الله عنه: (والله لو شئت أن أخبر كل رجل منكم بمخرجه ومولجه وجميع شأنه لفعلت، ولكن أخاف أن تكفروا في برسول(ﷺ)؛ ألا أي مفضيه إلى الخاصة ممن يؤمن ذلك منه، والذي بعثه بالحق، واصطفاه على الخلق ما أنطق إلا صدقاً، وقد عهد إلى بذلك كله، وبمهلك من يهلك، ومنجى من ينجو، ومآل هذا الأم، وما أبقى شيئاً يمر برأسي إلا أفرغه إلا أفرغه في أذني، وأفضى به إلي(١)).

روى هشام بن الحكم عن موسى بن جعفر عليه السلام قال: (يا هشام: ما بعث الله أنبياءه ورسله إلى عباده إلا ليعقلوا عن الله، فأحسنهم استجابة أحسنهم معرفة، وأعلمهم بأمر الله أحسنهم عقلاً، وأكملهم عقلاً أرفعهم درجة في الدنيا والآخرة(٢)).

من ناحية أخرى، صنف الكليني المرويات المتعلقة بعلم الأئمة تحت عدة أبواب، نذكر منها: (باب أنه لم يجمع القرآن كله إلا الأئمة عليهم السلام، وأنهم يعلمون علمه كله(٣)) و(باب أن الأئمة عليهم السلام يعلمون جميع العلوم التي خرجت إلى الملائكة والأنبياء والرسل عليهم السلام(٤)) و(باب أن الأئمة عليهم السلام إذا شأوا أن يعلموا علموا(٥)) و(باب أن الأئمة عليهم السلام يعلمون متى متى يموتون، وأنهم لا يموتون إلا باختيارهم(٦)) و(باب أن الأئمة يعلمون علم ما كان وما يكون وأنه لا يخفى عليهم الشيء صلوات الله عليهم(٧)).

لا شك في أن الأنبياء والأئمة عليهم السلام، وإن علموا الأسماء كلها، وأن الأئمة عليهم السلام وإن علموا علم ما كان وما يكون، إلا أنه لا شك في أن علم

(١) الكلبايكاني (لطف الله الصافي): لمحات في الكتاب والحديث والمذهب، المجلد الأول، مكتبة آية الله العظمى الصافي، قم، إيران ١٤٣٣هـ، هامش ص ٢٠٣.

(٢) الكليني: أصول الكافي، الجزء الأول، ص ٨، ٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٣٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٥١.

(٥) الكليني: أصول الكافي، الجزء الأول، ص ١٥٣.

(٦) المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(٧) المصدر نفسه، ص ١٥٥.

الجميع عند علم الله ليس إلا كما قال الله تعالى: (وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) (١) ولذا خاطب نبيه عليه السلام الذي علمه ما يكن يعلم، قال تعالى (٢): (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) (٣).

التساؤلات التي يطرحها المذهب الشيعي هي: ما مصادر علم الأئمة؟ ما درجة اليقين فيه؟ وما حدوده؟

يقول محمد حسين المظفر: "أما علم الإمام، فهو يتلقى المعارف والأحكام الإلهية وجميع المعلومات من طريق النبي أو الإمام قبله، وإذا استجد شيء لا بد أن يعلمه من طريق الإلهام بالقوة القدسية التي أودعها الله تعالى فيه، فإن توجه إلى شيء، وشاء أن يعلمه علمه على وجهه الحقيقي، لا يخطأ فيه ولا يشتبه، ولا يحتاج في كل ذلك إلى البراهين العقلية، ولا إلى تلقينات المعلمين، وإن كان علمه قابلاً للزيادة والاشتداد" (٤).

يقول محمد بن شهر آشوب المازندراني (ت ٥٨٨هـ): "والله لقد أعطينا علم الأولين والآخرين، فقال له رجل من أصحابه: جعلت فداك، أعندكم علم الغيب؟ فقال: ويحك، إني لأعلم ما في أصلاب الرجال وأرحام النساء" (٥) وتمتلى كتب الاثنى عشرية بالدلائل المؤيدة لإطلاع الأئمة على الغيب.

يضيف محمد حسين المظفر: "إن الكلام في علم الإمام يشمل: العلم بالساعة، والآجال والمنايا وغيرها، مما ظاهره استنثار به تعالى، والتي يجمعها قوله جل شأنه (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (٦)؛ لأن النصوص الخاصة صريحة في أن الله تعالى أطلعهم على هذا العلم" (٧).

(١) سورة الإسراء: الآية ٨٥.

(٢) الكلبيكاني: لمحات في الكتاب والحديث والمذهب، المجلد الأول، ص ٢٠٣.

(٣) سورة طه: الآية ١١٤.

(٤) المظفر: عقائد الإمامية، ص ٥٦.

(٥) المازندراني (محمد بن شهر آشوب): مناقب آل أبي طالب، الجزء الرابع، مؤسسة العلامة، قم، إيران ١٤٠٢هـ، ص ٢٥٠.

(٦) سورة لقمان: الآية ٣٤.

(٧) المظفر (محمد الحسين): علم الإمام عليه السلام، مطبعة الزهراء، بيروت ١٤٠٢هـ، ص ١٢، ١٣.

السؤال الذي يفرض نفسه: ما المخرج المنطقي الذي طرحه الاثني عشرية للخروج من مأزق الخطأ في علم الإمام المستقبلي بعدم تطابق الواقع مع ما أخبر به؟ بررت الاثني عشرية جريان الحوادث على خلاف ما أخبر الإمام بـ(البداء) والذي اعتبروه بحسب مرويات الكليني: (ما عبد الله بشيء مثل البداء)^(١) وقال أبو عبد الله عليه السلام: (إن الله لم يبد له من جهل.. فما بدا لله شيء إلا كان في علمه قبل أن يبدو له)^(٢).

على أية حال، تبدو متلازمة العلم بين الأنبياء والأئمة منطقية وغير متعارضة مع القرآن الكريم، في ضوء ما يطرحه بعض أئمة الشيعة أمثال: أبو جعفر عليه السلام: "إن الله (ﷻ) عالم بما غاب عن خلقه، فيما يقدر من شيء، ويقضيه في علمه قبل أن يخلقه، وقبل أن يفوضه إلى الملائكة، فذلك علم موقوف عنده، إليه فيه المشيئة، فيقضيه إذا أراد، ويبدو له فلا يمضيه، فأما العلم الذي يقدره الله (ﷻ) فيقضيه ويمضيه، فهو العلم الذي انتهى إلى رسول الله وإلينا"^(٣) وإلينا"^(٤) وكذلك، أبو عبد الله عليه السلام عندما يقول: (يا عجباً لأقوام يزعمون أنا نعلم الغيب، وما يعلم الغيب إلا الله (ﷻ) وعندما سئل عليه السلام عن الإمام يعلم الغيب؟ فقال: لا، ولكن إذا أراد أن يعلم الشيء أعلمه الله ذلك"^(٥).

هكذا، يتضح أن النفي الشيعي للمماثلة الموضوعية في علم الغيب بين الله والأئمة، بل ونفي المماثلة من زاوية الذات العارفة، إذ علم الله بالغيب يكون بذاته، أما علم الغيب عن الأئمة مجرد هبة إلهية لهم.

نتائج البحث:

أولاً: إن الاختراق الأفضل للبنية المنطقية لمتلازمة النبوة والإمامة يكون إنطلاقاً من معقولية الدفاع القرآني عن بشرية الأنبياء، حيث تبدو معقولية التركيز القرآني على بشرية الأنبياء عليهم السلام من خلال إبراز أن اللوازم

(١) الكليني: أصول الكافي، الجزء الأول، ص ٨٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٥٢.

(٤) الكليني: أصول الكافي، الجزء الأول، ص ١٥٢.

المنطقية للنبوّة من إصطفاء إلهي، ومعجزات، وعصمة، وعلم لذني.. الخ مجرد وسائل تساعد الأنبياء عليهم السلام في أداء مهمتهم المقدسة. وكان الأولى والأجدر بالشيعة - حتى مع الافتراض الجدلي بتصويب متلازمة النبوّة والإمامة - ألا يخرجوا عن حدود تلك المعقولة القرآنية في النظر إلى الأئمة، ولكن للأسف تحولت لوازم النبوّة الطبيعية عند الشيعة من وسائل إلى غايات في حد ذاتها عند إلحاقها بالإمامة بسبب التهميش الشيعي لبشرية الأئمة عليهم السلام والتركيز على قدسية الأئمة. والانتقال الشيعي من الإنسان النبي إلى الإنسان الإمام هو نوع من الشطح الفكري دفعتهم إليه محاولاتهم البائسة في البحث عن إيجاد حماية فكرية على خلفية دينية مقبولة في مواجهة الاضطهاد السياسي الذي مارسه ضدهم حكام بنى أمية، مثلما يلجأ الصوفية إلى العزلة واختراع الإنسان الولي الذي يفوق بكراماته أفعال الإنسان الحاكم، عوضاً عن الفشل في تحقيق الذات على المسرح الحياتي والسياسي.

ثانياً: إذا كان من الطبيعي أن يكتفي السنة باشتراط عدالة المستحق للإمامة، في مقابل الإصرار الشيعي على ضرورة عصمة الإمام، فقد حاول السنة نزع القدسية التي رسمها الشيعة عن الأئمة، فكانوا مجرد علماء أبرار في الآداب السلطانية والفقهاء السياسي السني، ولكن للأسف أضفوا قدسية عملية على الخلفاء كنتيجة منطقية للخوف الشديد من الفراغ السياسي؛ ذلك الخوف الذي كان وراء الإزاحة السنية لإمامة المتغلب من دائرة الحظر إلى دائرة الجواز، وإمامة المستبد من دائرة العزل إلى دائرة الصبر، حيث تترك العدالة السنية الباب موارباً أمام إمامة المفضول، وربما الفاسق تمشياً مع الواقعية السياسية التي يتمتعون بها بخلاف الشيعة الذين يحلقون في عالم المثالية السياسية الذي جعل العصمة الشيعية لا تعترف إلا بإمامة الأفضل، وتوصد الباب في وجه إمامة المفضول فضلاً عن إمامة الفاسق. كما أن العصمة المقنعة عند أهل السنة بناءً على النص المؤسس لتحريم نقد الصحابة، ونعني به الحديث النبوي: (أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم) وهو حديث قال بوضعه ابن حزم قديماً والألباني حديثاً، ويعارضونها عند التطبيق الشيعي لها على أنمة آل البيت النبوي. وينتقد الشيعة المعارضة السنية للعصمة باعتبارها معارضة نظرية أما في الواقع، فقد

قالوا بعصمة الصحابة وإن عبروا عنها بمصطلح عدالة الصحابة، وتشملهم كلهم بلا استثناء.

ثالثاً: تثير متلازمة العلم الإلهي بين الأنبياء والأئمة (إشكالية نظرية الإمامة وعقيدة ختم النبوة عند الشيعة) في ظل توسيع دائرة العلم اللدني للإمام والذي يجعله الإمام في غنى حتى عن الوحي الإلهي، ويعطيه مقاماً أعلى حتى من مقام الأنبياء. وبعبارة أخرى فإن الأوصاف التي يعتقدونها الشيعة في أئمتهم تجعل الأئمة في مستوى أعلى بكثير من الأنبياء، وبناءً على ذلك فالقول بأن الاكتفاء بمقولة الإمام ليس نبياً لا يحل الإشكال.

رابعاً: في كلمة واحدة؛ رغم ما يبدو من تماسك ظاهري في البنية المنطقية لمتلازمة النبوة والإمامة إلا أن تلك المتلازمة في المحصلة الأخيرة متناقضة مع منطق القران؛ سواء أكان ذلك تناقضاً مفاهيمياً، (أي متعلق بالبنية المفاهيمية الشيعة: إمامية، نص، وصية، عصمة، علم بغيب، إلخ) أم تناقضاً استنتاجياً (أي متعلق بالاستنتاج واستنباط النتائج) من مقدمات لم يتم البرهنة عليها قرانياً فقد كان الدفاع القرآني عن "بشرية النبي" معقولاً، في حين كان دفاع الشيعة عن "لا بشرية الإمام" لا معقولاً.

أهم المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.

- (١) ابن خلدون (عبد الرحمن): المقدمة، الطبعة الأولى، دار القلم، بيروت ١٩٧٨م.
- (٢) ابن المطهر الحلي (أبو منصور): الرسالة السعدية، تعليق وتحقيق: عبد الحسين بقال، دار بهمن، قم، إيران ١٣٢٠هـ.
- (٣) ———: منهاج الصلاح في اختصار المصباح، تحقيق: عبد الحميد الميردامادي، مكتبة العلامة المجلسي، قم، إيران ١٢٣٠هـ.
- (٤) الاسفراييني (أبو المظفر): التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، تحقيق كمال يوسف الحوت، عالم الكتب، بيروت ١٤٠٣هـ.

- ٥) الأشعري (أبو الحسن): مقالات الإسلاميين، واختلاف المصلين، الجزء الأول، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الثانية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٩م.
- ٦) آل كاشف الغطاء (محمد الحسين): أصل الشيعة وأصولها، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ١٤١٠هـ.
- ٧) آل ياسين (محمد حسن): أصول الدين، مؤسسة قائم آل محمد، قم، إيران ١٤١٥هـ.
- ٨) الأميني (إبراهيم): دراسة عامة في الإمامة، ترجمة كمال السيد، مؤسسة أنصاريان للطباعة والنشر، قم، إيران ١٤٢٦هـ.
- ٩) الألوسي (أبو المعالي محمود شكري): صب العذاب على من سب الأصحاب، دراسة وتحقيق: عبد الله البخاري، أضواء السلف، الرياض ١٤١٧هـ.
- ١٠) الإيجي (عضد الدين): المواقف في علم الكلام، عالم الكتب، بيروت، د.ت.
- ١١) التميمي (هجاد بن مساعد): الألوهية والعبودية في معتقد الرافضة، دار المحدثين للتحقيقات العلمية والتوزيع، القاهرة ٢٠٠٧م.
- ١٢) الحكيم (محمد باقر): الإمامة وأهل البيت؛ النظرية والاستدلال، المركز الإسلامي المعاصر للدراسات والترجمة والنشر، بيروت ١٤٢٤هـ.
- ١٣) الحيدري (كمال): من الخلق إلى الحق، مؤسسة الإمام الجواد للفكر والثقافة، قم، إيران ١٤٢٦هـ.
- ١٤) الرضوي (محمد الرضي): نحن الشيعة الإمامية وهذه عقائدنا، مؤسسة السبطين العالمية، قم ١٤٣٤هـ.
- ١٥) الروحاني (محمد صادق): أجوبة المسائل الاعتقادية، مؤسسة الإمام للنشر والتوزيع، دمشق ١٤٢٨هـ.
- ١٦) السبحاني (جعفر): محاضرات في الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، الجزء الثالث، بقلم حسن محمد مكي العاملي، مؤسسة الإمام الصادق، قم، إيران ١٣٨٨هـ.

- ١٧) الصغير (محمد حسين علي): الفكر الإمامي من النص حتى المرجعية، دار المحجة البيضاء، إيران ١٤٢٤ هـ.
- ١٨) الشاهروذي (محمد الحسيني): أجوبة المسائل الاعتقادية، مؤسسة آل المرتضى عليهم السلام للتحقيق والنشر، قم، إيران ١٤١٦ هـ.
- ١٩) شمس الدين (محمد جعفر): دراسات في العقيدة الإسلامية، الطبعة الرابعة، دار التعارف للمطبوعات، بيروت ١٩٩٣ م.
- ٢٠) الطبرسي (أبو منصور): الاحتجاج، الجزء الأول، والثاني تحقيق: إبراهيم البهادري & الشيخ محمد هادي به، إشراف: جعفر السبحاني، دار الأنوار للطباعة والنشر، إيران ١٤١٢ هـ.
- ٢١) العسكري (مرتضى): معالم المدرستين، الجزء الأول، مركز الطباعة والنشر للمجمع العالمي لأهل البيت، طهران ١٤٢٦ هـ.
- ٢٢) القفاري (ناصر بن علي): أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية؛ عرض ونقد، المجلد الأول، دار القلم، بيروت ١٤١٥ هـ.
- ٢٣) الكلبايكاني (لطف الله الصافي): لمحات في الكتاب والحديث والمذهب، المجلد الأول، مكتبة آية الله العظمى الصافي، قم، إيران ١٤٣٣ هـ.
- ٢٤) الكرباسي (صالح): استخدام الولاية التكوينية من قبل الانمة، مقال منشور على الموقع الإلكتروني: <https://www.islam4u.com> بتاريخ ٢٠١٦/٧/٣١ م.
- ٢٥) الكليني (محمد بن يعقوب): أصول الكافي، الجزء الأول والثاني، منشورات الفجر، بيروت ١٤٢٨ هـ.
- ٢٦) كوناكاتا (حسن): النظرية السياسية عند ابن تيمية، مركز الدراسات والإعلام، الرياض ١٤١٥ هـ.
- ٢٧) المازندراني (محمد بن شهر آشوب): مناقب آل أبي طالب، الجزء الرابع، مؤسسة العلامة، قم، إيران ١٤٠٢ هـ.
- ٢٨) المظفر (محمد الحسين): علم الإمام عليه السلام، مطبعة الزهراء، بيروت ١٤٠٢ هـ.
- ٢٩) —: فضائل أمير المؤمنين وإمامته، من كتاب دلائل الصدق في الجواب عن (إبطال الباطل) الذي وضعه الفضل بن رزبهان للرد على

(نهج الحق) للعلامة الحلبي في المسائل الخلافية بين فرقتي الإسلام:
الشيعة وأهل السنة وإثبات الإمامة، الجزء الأول، دار إحياء التراث
العربي، بيروت ١٣١٢هـ.

٣٠) المظفر (محمد رضا): عقائد الإمامية، النجف الأشرف ١٣٧٠هـ.

٣١) مغنية (محمد جواد): فلسفات إسلامية، دار الجواد، بيروت ١٩٩٣م.

٣٢) المفيد (محمد بن النعمان): الاختصاص، تحقيق: علي أكبر غفاري،
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ١٤٣٠هـ.

٣٣) —: كتاب تفضيل أمير المؤمنين عليه السلام، دار المفيد،
بيروت ١٤١٤هـ.

٣٤) الموسوي (حسين): لله ثم للتاريخ؛ كشف الأسرار وتبرئة الأئمة
الأطهار، النجف الأشرف، د.ت.